

اشراق الهلال على الوادى

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

جنود من الفرس عادت لتنتقم من الهزيمة الطاحنة التى لحقت ببولتها على يد هرقل ملك الروم العظيم ، وقاتل ان تلك قبائل البجة التى اعتادت العيش فى جنوب البلاد قد بلغت شمال الوادى لتبط على ريفه فتسلب منه ماشايت ثم تعود بسرعة قبل أن يستطيع الروم أن يجمعوا الجيوش للايقاع بها ، ثم قال قاتل منهم عن عركتهم الحروب « أين الفرس اليوم ؟ لقد صارت دولتهم فى يد جيوش عرب الصحراء كما صارت بلاد الشام . ولقد رأيت بنفسى جيش العرب يأخذ دمشق ويعطرد الروم من مروج سوريا ، وليس من شك فى أن هذا الغبار قد أثارته حوافر خيولهم السريعة .

وأتى عند هذه اللحظة قواد الروم عندما بلغهم الصخب واللفظ فنظروا حيث نظر الجنود ، ثم نظر بعضهم الى بعض نظرات صامتة فى وجوه مصفرة ثم قال (جورج) كبيرهم للجنود : « هلم أيها الجنود الى أما كنكم فليس من المباح لكم أن تغفروا الى جوار الرية تغفلونه عن حراسته ، فانصرف الجنود طائنين وقلوبهم غير راضية وعقولهم غير مطمئنة ، ثم مضى القواد الى ناحية من سور الحصن وجعلوا ينظرون الى الاشباح المتحركة والغبار النائر فى ضوء الغروب الخافت .

ثم قال (جورج) القائد الأعلى للحصن « أيمكن أن يكون هؤلاء العرب قد غلبوا جنود الدولة التى أرسلت اليهم وبلغوا هذه الجهات فى شهر واحد ؟ وماذا فعل (إريطيون (١) ؟ وماذا فعل تيودور (٢) ؟ فقال أحد القواد ، وكان أقربهم اليه : « لقد شهدت حرب هؤلاء فى مواطن كثيرة ، إنهم يخرجون اليك كأنهم مراب الصحراء لا تدرى من أين جاءوا ، ثم تراهم ينصرفون عنك حتى لا تسمع عنهم شيئا فكأنهم غاصوا فى رمال الصحراء . ثم ما يلبثون أن يعودوا اليك وأنت لا تتوقع عودتهم كأنهم أشباح لا تعوقهم مادة صده الأرض .

ثم أرخى الليل سدوله ولم يأت بعد نبأ عن فعل تلك الاشباح المتحركة ، وطلع صباح اليوم التالى فاذا بالأرض الشامية على عهدها ليس فيها غبار نائر ولا أشباح متحركة ، فكأنما كان منظر السماء الغابر من صور الخيال واختراع الوهم . الا أن زوال ذلك اليوم حمل الى الحصن بقية من جرحى قرية (أم دين) التى على شاطئ النهر

وقف رية الروم فوق أعلى حصن (بابليون) بجوار مدينة مصر العظيمة ، فنظر الى مادونه نحو الاهرام عابرا يبصره نهر النيل العظيم فذهب به الخيال الى الماضى البعيد ، وهمت بنسبه سورة خفيفة من الشجن المبهم ، وكان الجو كله يمتلئ بالاشجان والخاوف لما كانت الدولة تلقاه من جميع الانحاء من الغارات والاضطراب ، فحضر الى الشمال نحو مدينة الشمس العظيمة (أون (١)) حاضرة العلوم القديمة ومركز ثقافة الفراعنة ، غير أنها لم تكن عند ذلك إلا بقية ضئيلة من نفسها القديمة . ثم نظر الى الكروم والبساتين التى تكتنف الحصن من شماله حتى تصله بمدينة (أون) فلاح له من بينها غبار نائر وجرم متحرك . وما زال يحدق فى ذلك الغبار وقلبه مضطرب وعقله تساوره الذكريات ، والخاوف تتوارد عليه سراعا . ثم صاح صيحة النذير فاجتمع حوله جنود الحصن الذين كانوا على مقربة منه يشتركون معه فى النظر الى ذلك الغبار النائر وما لاح تحته من اجرام متلاحقة متحركة نحو شاطئ نهر النيل . وكانت الجنود الى ذلك الوقت لا يعرفون شيئا سوى ما يذيعه لهم قوادهم وأمرأهم ، فجعلوا يذهبون مع الخيال مذاهب شتى ، فقاتل منهم تلك

(١) هى مدينة (عين شمس) أو مايو يوليس المعروفة قديما

ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيت مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما .

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عند ما اتخذ هجرة الرسول من مكة الى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنينهم وأيامهم ، ويورخون منه أحداثهم ووقائعهم . انه لا شك قد لحظ فى الهجرة أنها بده رسوخ الإسلام ، ولكننا نلاحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة : حياة الأمل والتضحية والاخلاص ؟

عبد الحميد العبادى

(١) إريطيون قائد من كبار قواد الروم

(٢) وتيودور القائد العام لجنود الروم بمصر عند غزوة العرب

وقلا من مصلحة الحصن التي هزمها الجيش البدوي المغير . غير أن ذلك الجيش لم يبق بعد ذلك طويلا على الشاطئ . بل عبر النهر واختفى في الأفق الغربي . فتعجب القائد (جورج) عندما بلغه هذا ، وعرف أن قائد الذي وصف له حرب العرب كان يصفهم عن خبرة وعلم . لقد ظهر جيش العرب في شمال الحصن كأنه شبح خيال ثم اختفى كذلك كأنه شبح خيال . ولكن متى يعود ؟ ومن أي جهة يطلع بعد عليهم ؟ تواردت إلى الحصن بعد ذلك الامداد الكثيرة من جميع أنحاء مصر أخيرا إلى الحصن الحصون الذي يدافع عن قلب البلاد مدينة (مصر) ، وأجاب قواد الاطراف على استصراخ (جورج) قائد الحصن بأن بعثوا إليه ما استطاعوا بعثه من الجنود المجردة ليطردوا ذلك الجيش الذي لاح ثم اختفى . وتجهز المقوقس العظيم ليسير بنفسه من الاسكندرية إلى مركز البلاد ، ليكون وجوده حافزا لهمة الجنود ، ولا يكون على مقربة من الاعداء لعله يستطيع بما أوتي من بلاغة وذكر أن يصرفهم عن البلاد .

ومرت الأيام سراجا وراجت الاخبار المتضاربة عن الغزاة ، وأنت بعض أبناء تلك الكتيبة الصغيرة من فرسان الصحراء ، فإذا بالقائد الشجاع (حنا) الذي كان معبود جيش الروم باليوم يقتل في بعض المواقع منذ دفعته شجاعته للقاء جيش العرب . وترددت أبناء ذلك بين القواد والجنود فإذا هم في حصن بابليون حلقات يتهايمسون عن هذا العدو المغير ويتساءلون عن كنهه وحقيقة أمره ، وكان بين جنود الروم وقوادهم من رأى حروب الآفار والبلغار والفرس ، وكان منهم من قرأ أخبار الامم الماضية عن أغار على دولة الرومان في القرن الماضي ، عن المبردين والوندال والقوط . وما كان أقطع تلك الامم التي أغارت في تلك القرون على أراضي الدولة الرومانية فقد كانوا يعرفون في الحرب هواة ولا رحمة ، ولا يخضعون لقانون خلق أو ديني . فقد حكى عن (البرين) ملك اللبردين أنه هزم في بعض حروبه قبيلة الجيضى وقتل رئيسهم والد (روزاموند) الجيلة ، ثم اتخذ تلك الابنة الجيلة زوجة له واحتفل بزواجه منها احتفالا وحشيا ، وجعل يشرب الخمر في كأس جيلة . وأي كأس أجل من جيلة عدوه والد عروسه الجيلة ؟ حقا ما كان أظلمه وأقطع قومه ! ولقد دخل الوندال بلاد غالة ثم بلاد افريقية ، وكان الروم يعرفون مقدم هؤلاء الوندال بما يرتفع من هيب النيران فوق آفاقهم . فكان هؤلاء الوندال يمتاحون بلادهم كما يحتاج العواصف والحرائق

السهول الفيحاء فتركها قاعا صاففا ، أيكون العرب كبعض هذه الامم ؟

مضى أشهر ثم عادت كتيبة العرب من الافق الغربي فبهرت نهر النيل مرة أخرى ، وظهرت لريثة الروم من خلال البساتين والكروم التي بين الحصن ومدينة (أون) ، وكان الروم قد اجتمعوا في العدد والعدة في حصنهم العظيم (بابليون) ، فما أسرع أن تدقت جموعهم نحو الشمال لتحيط بتلك الكتيبة وتهلكها . وهل كان هؤلاء العرب ليقروا على صدمة جيش عظيم كهذا ؟

وقع الاصطدام أخيرا عند مدينة (أون) . وماذا هم القوم ؟ فإنهم إلى اجولات ، فإذا بجيش الروم يتردد في سيرة ، ثم إذا به يرتد نحو شاطئ النهر . ثم ها هي كتيبة عربية تخرج إليه من شاطئ النهر كأنها تنذف عليه من أعماقه . وها هو ذا الجيش العظيم يتردد مرة أخرى ثم يتفكك ثم تدافع جموعه نحو الجنوب يحاول كل فرد منهم أن يبلغ الحصن قبل أن تأخذه سيوف العرب اللامعة . ومرة الايام بعد ذلك فإذا بالروم قد دخلوا حصنهم وأغلقوا أبوابه الضخمة ، وإذا بالعرب حول الحصن العظيم يتطلعون إليه ولا يدرون كيف يسمون فوقه . وأراد المقوقس العظيم أن يعرف حقيقة أمر هؤلاء المغيرين لعله يعطيهم بعض مال فيرتدوا عنه ، فقال له أحد القواد : « دع عنك هذا فاهم بمن يأتي من أجل الذهب حتى إذا ما بذل لهم ذهبوا به عنا » وجعل يقص عليه قصته مع رجل (١) من هؤلاء العرب رآه يوما واقفا وحده يضي ، فبطأه من الحصن مع جماعة من الروم ، فترك العربي الصلاة وأقبل اليهم كأنه الصخرة الثقيلة التي تتحدر من عل . لا يتردد ولا يلتفت إلى شيء ، فهربوا منه حتى أنهم رموا إليه بمناطقهم الذهبية ليلبوه بها فلم يلو على شيء منها ، ولم ينجم منه إلا أن بلغوا الحصن وأغلقوا بابه دونه ، ورموه بالحجارة من فوقه . فارتدوا ولم يلتفت إلى تلك المناطق الذهبية ، بل عاد إلى موضعه ليتم ما كان فيه من الصلاة وتركهم يخرجون من حصنهم لاسترجاع مناطقهم ثم يعودون على حذر

تعجب المقوقس العظيم ، وأراد أن يستطلع حقيقة الامر بعث بجماعة من الروم رسلا إلى قائد القوم فرأوا من هؤلاء المغيرين ما لا يعدل الروم به من قبل . قال الرسل : « رأينا قوما ، الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لاحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على

القرنين الاولين من بعد الفتح سياسة اعتدال ورفق ، تسمع ذلك مترددا على لسان أساقفة القبط الذين تركوا لنا في دواوينهم ذكرا من تلك الامام .

قال أحدهم عند ما عاد بنيامين بطريق القبط آمنا بعد أن هرب ثلاثة عشر عامنا من اضطهاد الروم : « الحمد لله الذي أنجى من الكفرة (الروم) ، وحفظك من الطاغية الاكبر الذي شردك فعدت الى ابنائك نراهم ملتفين حولك مرة أخرى » .

ونقل عن بنيامين البطريق الأعظم للقبط انه قال يصف عودته عند فتح العرب : « كنت في بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف ، واطمئنا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (الروم) وبأسهم » « وقد فرح القبط كما يفرح الاسخا ل اذا ما حلت لهم قيودهم ، وأطلقوا ليرتشفوا من لجان أمهاتهم » .

وقال الاسقف حنا القويسى : « لقد تشدد عمرو في جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب ، بل انه حفظ الكنائس وحماها الى آخر مدة حياته » .

وقد ورد في كتاب الأستاذ بئر (فتح العرب لمصر) فى وصف دخول المصريين فى دولة العرب : « فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان ، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيودهم فى أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم . وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق » .

واذا كان قبط مصر قد دخلوا فى الاسلام أفواجا حتى صار الاسلام دين الكثرة فى البلاد ، فاذ ذلك إلا ميل الالبسة نحو وحدة قوم هم بطبيعة حياتهم ذاتا لا يستطيعون الا أن يكونوا شعبا واحدا متجانسا . ولقد بقيت من القبط بقية عظيمة فى دلالتها ، عظيمة بما يجرى فى عروقها من دم مصر القديمة ، واذا كان دينها دين المسيح ، ودين سائر أهل مصر الاسلام ، فان ذلك لا يفرق بين طائفتين تجمع بينهما أسباب الحياة وأواصر الاخوة . وأن الاسماء إذا اختلفت ، والمظاهر إذا اختلفت ، فانها من التابن ، فان الدماء التى تجري فى العروق ترجع الى منبع واحد وجزء من قديمة شهدت عصور ما قبل التاريخ ؟ محمد فريد أبو حديد

ركبهم ، واميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد . ينسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

لم يكن هذا شأن شعب من شعوب الهمج الذين افرسوا اطراف الدولة الرومانية . وهذه أول مرة يجتمع فيها الى الاستبانة بالحياة والشجاعة التى لا تعرف خوفا ، خلق متين ونظام لا ينفك منه أحد . ومن ذا يستطيع أن يقارم شعبا اجتمع له هذان الوصفان ؟

كان أعظم ما يخشاه الروم فى مصر أن يعرف شعب مصر حقيقة هؤلاء العرب ، فلما أنهم عرفوا العرب لأنوا اليهم ، ولوأنوا اليهم لأصبح الروم ولو كثر عديدهم غرباء عن الارض قد فقدوا الناصر والتابع . غير أن شعب مصر الذى أن عرف الحق وانصل هؤلاء المحاربين ، فلقد كانوا فى سيرهم لا يسيرون سيرا لجيوش المغيرة المدلة المتكبرة المفسدة ، بل كان الطفل آمنينهم ، والمرأة لا يلحقها أذى من نظرة أحدهم . إذ كانت عداوتهم لجيش الروم لا لأهل مصر ، بل لإن أهل مصر كانوا موضع وصية خليفتهم ووصية نبيهم الكريم ، ومنذ رأى أهل مصر ذلك صاروا حلفاء لهم على أولئك الروم الذين ظالما طفوا وبغوا وظلوا وعسفوا وأحرقوا وعذبوا ولم يعرفوا فى رعيتهن ما كان فى اعتاقهم من أمانة . وما هو إلا عام حتى كان العرب على انتظار تسليم الاسكندرية ذاتها بعد أن دان لهم داخل البلاد .

وكان الحاكم العربى عمرو بن العاص لا يدع فرصة لتذ كبر جنوده بما عليهم من الواجب نحو أهل البلاد التى حلوا بها ، وكأنتا به يتطلع بخياله القوى نحو ذلك اليوم الذى يمتزج فيه قومه الصحراويون بقبط مصر ، وينشأ من ذلك الامتزاج شعب جديد يقوم على انشاء مدينة جديدة . وقف عمرو يحطب فى قومه عند حلول الربيع وقت ذهاب العرب الى الرف ابتغاء أن يصيبوا من خيراته لأنفسهم ولخيوطهم . وقال عند ذلك فى خطبته : « واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، وإياكم والمسومات المعسولات .. حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم سهم صبرا وذمة ، فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ... » ولقد سار العرب على وصية قائدهم الحكيم فلم يشك أحد من أهل مصر اعتداء على شرفه ولا انتهاكا لحرمته .

ولقد كان عمرو عفيفا فى حكمه عن السف والخطب حتى لقد وقف فى وجه عمر بن الخطاب نفسه دفاعا عن سياسته المالية الرحيمة ، ثم عزل عن مصر فى أيام عثمان دفاعا عن تلك السياسة عينها . وكانت سياسة العرب على تقلب الايام واختلاف الدول مدى